

وصف الطبيعة في الشعر العباسي

لوحات كشاجم نموذجاً

د. زينب عبد الكريم حمزة

الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب

Nature Description in the Abbasid Poetry – Lawhat Kashajum as a Sample

Dr. Zainab Abdul Kareem Hamza

University of Al-Mustansiriya / College of Arts

Abstract

The poetry of nature is the poetry that represents nature or some of what it included, and the environment of Shamia and Egypt at that time fertile ground and abundant news gave us a grudge of hair descriptive nature, which fascinated by the poets, and take the poet meditating, and transmitted by his pain, and forget his sorrows, and love, , As she herself complied with.

المخلص

شعر الطبيعة هو الشعر الذي يمثل الطبيعة أو بعض ما اشتملت عليه، وكانت البيئة الشامية والمصرية آنذاك أرضاً خصبة وبنوعاً وافراً أفرز لنا غرراً من الشعر الواصف للطبيعة والتي فُتن بها الشعراء، وأخذ الشاعر يتأمل فيها، ويبثها آلامه، وينسى عندها أحزانه، ويحبها، ويفتن بها، كما امتثلتها نفسه.

المقدمة

يلجأ الشعراء دائماً للطبيعة ويتخذونها مصدر إلهام لهم، يأوون إليها متأملين ظواهر الحياة والكون، ويستمدون منها وحي الشعر، فالطبيعة ملهمة الفنان، ومصدر الوحي، ومنبع الإلهام وتهوى إليها أفئدة الناس مهما اختلفت ثقافتهم وبيئتهم، فالإنسان بفطرته مغرم بالطبيعة، مقدس جمالها، يشاركها أشجانه وخواطره وبيادله أفكاره ويشركها مسراته وعزاه.

لقد كان هناك ارتباطاً وثيقاً بين الشعراء والطبيعة منذ العصر الجاهلي، وكان شعر الطبيعة أصيل عند شعراء العصر الجاهلي وهذا نتاج طبيعي لتلك البيئة الصحراوية التي كانوا يعيشون بها، فاتخذ الشاعر الجاهلي من البيئة مصدر الإلهام وفُتن بجمالها، وأخذ يُعبر عن حبه لها في أصدق التعبيرات، وقد فسر ذلك أحد خطباء العرب لكسرى حين سأله عن مساكنهم في البادية وتعلقهم بها، فقال: "أيها الملك! ملكوا الأرض ولم تملكهم، وأمنوا من التحصين بالأسوار، فمن ملك قطعة من الأرض فكسائها كلها له، يردون منها خيارها، ويقصدون أطافها"^(١).

تختلف الطبيعة تبعاً لرؤية الشاعر وبيئته التي يعيش فيها، ولقد كانت للبيئة المصرية والشامية النصيب الأكبر من الشعر الواصف للطبيعة نتيجة لافتتان الشعراء بهما وبمناظرهما الخلابة، وقام الشاعر بوصف الطبيعة بأبداع الألفاظ والتراكيب والتعبيرات الجمالية، وسعى لمعرفة الكون واكتشاف نواميسه، أي أنه لم يكتفي بظاهر الأشياء، بل يقابل بينهما ويستنتج منه"^(٢). واختلفت نظرة الشاعر الفنية للطبيعة إبان العصر العباسي، وكان هذا واضحاً في بيئة الشام عند بني حمدان وبيئة مصر في القرن الرابع الهجري. وعلى الرغم من اختلاف نظرة الشعراء للطبيعة إلا أن هناك بعض السمات المشتركة بينهما، والأخرى المرتبطة بنظرة كل شاعر، فالشعر الطبيعي منبع أصيل للحضارة العباسية بصفة خاصة والأدب العربي ككل بصفة عامة.

(١) أبو الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ١، ص ٦٢.
(٢) إيليا الحاوي: فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، دار الكتاب المصري، مصر، ط ٣، ١٩٨٠م، ص ٨.

المبحث الأول

الطبيعة الصامتة في الشعر العباسي

الشاعر العربي القديم كان معروف بأنه شاعر طبيعة، وذلك لكثرة تأملاته بها، فهو يتخذها مصدراً للتفيس عن آلامه وأحزانه، ويشاركها أفراحه ومسراته، وتستهويه الصحراء بحيوانها، ورمالها، ونجومها، وبرقها. ولقد صنفت الطبيعة الصامتة إلى: طبيعة أرضية كالروض والشجر والزهر والثمر. والطبيعة العلوية كالنجوم والكواكب والمطر وفصول السنة. والطبيعة الصناعية وهي التي عمل الإنسان في تأليفها وتنسيقها كالقصور والعمائر والبساتين.

المطلب الأول

الطبيعة الأرضية في الشعر العباسي

نظراً لاختلاف البيئات والثقافات فيما بعد تطورت نظرة الشاعر العربي إلى الطبيعة أو البيئة التي يعيش فيها، فقد نجد أن الشاعر العباسي في أحيان كثيرة كان يتحول من وصف الصحراء وحيوانها إلى وصفه للأنهار والبحار والأشجار والزهرات والورود.

الفرع الأول

الأنهار والبحار

اعتنى شعراء بني حمدان بالأنهار والبحار وخاصة كشاجم، وكان لكشاجم مفردات عديدة للمائيات كالنيل والفرات ودجلة ولكنه كان متأثر متأثراً كبيراً بنهر قويق، وهذا النهر يعرف بأنه نهر موسمي أي أن مائه تجف صيفاً وتفيض شتاءً، ويروي الروضيات وتسير فيه السفن ويصطادون منه الأسماك، ويشبه دورانه بدوران (البركار الهندسي)، فوصف ذلك قائلاً: (١)

إذا ما استمد قويق السماء *** بها فأمدته أمطارها
وأقبل ينظم أنجادهما *** بفيض المياه وأغوارها
وأرض جئاتها درة *** فعمم بالنور أشجارها
ودار باكتافها دورة *** تنسى الأوائل بركارها
كان هلوها حبتها السوا *** ر أو سلب الكسف أسوارها

يرى كشاجم نهر قويق رمزاً للعتاء والكرم فهو لا يبخل بالعتاء عندما تمده السماء بالأمطار ويفيض بالماء، فيوزع المياه على ما حوله من أراضي وبساتين ورياض بالعدل وبدون بخل. وكان لنهر قويق محبة خاصة في قلب كشاجم فعلى ضفتيه كان يتغزل ويشرب الخمر ويتمتع بجماله، وارتبطت صورة النهر لديه بالمحبة فقال: (٢)

للنهر نهر قويق *** عندي يد ليس تجرد
عشية اصطدت فيه *** رشاً من المزد أعيد

(١) كشاجم: ديوانه، ص ١٧٨ - ١٧٩.

(٢) المصدر السابق: ص ١٣٠.

فـرـاح يـسـمـى بـكـأـس	***	مـدـامـها لا يـصـرـد
مـحـقـوقـة بـجـبـاب	***	مـؤـلـف يـتـصـرـد
كـأـنـمـا نـظـم دـر	***	مـن تـغـرـه يـتـولـد

وعبر كشاجم أيضاً عن إعجابه بنهر النيل في تبارحه وفيضانه، ووصفه بأنه يكاد أن يكسر كل حاجز وأنه يحاصر القرى من حوله ككواكب السماء، حيث قال: (١)

كـأن النـيـل حـيـن أتى بمـصـر	***	وفاض بها وكسرت الترع
وأحـدق بـالـقـرى مـن كـل وـجـه	***	سـماوات كـواكـبها ضـياع

ووصف كشاجم النيل والزوارق التي تسير فيه ومجالس الخمر المنعقدة على جانبيه، حيث قال: (٢)		
والنـيـل مـسـتـكـمـل زـيادـته	***	مـثـل دروع الكـمـاة مـنـثـرة
تـغـدو الزـوارق فـيـه مـصـعدـة	***	بـنا وـطـورا تـروح مـنـحـدة
والكـأس يـسـمى بـها مـنـكـرة	***	أرادتها بـالعـبير مـخـمـرة

لقد كان كشاجم ولوعاً بالسفر والترحال، وكان يصف السفر ومشقته في شعره، فكان أثناء سفره يجتاز الأراضي السهلة والجبال الوعرة، وكان أحيانا يركب الأمواج العالية كالجبال نتيجة لاضطراب الماء في نهر الفرات فقال: (٣)

تـرفـعـني بـلـدـة وتـخـفـضـني	***	أخزى فمن سهلة ومن وعره
فـتـارة فـوق سـهـلـة	***	قـطـاتها بـالبـداد مـنـقـرة
وتـارة فـي الفـزات طـامـية	***	أـمـا جـه كـالجـبال مـعـكـرة

ومدح كشاجم البحر في صورة أخرى، وجعل المتعلقين به متعلقين بسفينة نوح عليه السلام طلباً للنجاة من الغرق في هذا البحر حيث قال: (٤)

سـفـينة نـوح فـمـن يـعـتـلق	***	بـهم يـعـتـلق بـالنـجاء
-----------------------------	-----	-------------------------

(١) كشاجم: ديوانه، ص ٤٨٩.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٠٦.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٠٦.
(٤) كشاجم: ديوانه، ص ٤٠٣.

ويحمر تدفق بالمعجزات *** كما يتدفق ينبوع ماء

وقد شبه كشاجم البحر بالعلم، وطود الحلم، وأنه يبشر بالخير كالهلال في ليلة العيد، فقال: (١)
بحر علم عداه حجة خصم *** طود حلم هلال ليلة عيد

الفرع الثاني

الأشجار المثمرة

أبدع الشعراء العباسيين في وصف الأشجار والثمار لأنها من أهم مزايا الروضيات، فوصفوا لونها ومذاقها وشكلها، كما أنهم أبدعوا في وصف الفاكهة المتنوعة الموجودة بالروضيات، وهذا الأمر ليس غريباً في أن الشعراء يتفنون في وصف الأشجار والثمار نظراً لما تحويه بيئتهم العربية من أشجار ونخيل وخاصة تلك المنتشرة في جزيرة العرب والعراق ومصر. وصف كشاجم بساتين النخيل الموجودة على ضفاف نهر دجلة فقال: (٢)

لنا على دجلة نخيل منتخل *** نسلفه اء وتقضينا عسل

مسطر على قوام معتدل *** لم ينحرف عن سطره ولم يمل

ذو قدر فلا علا ولا سفل *** يسقى بماء وهو شتى في الأكل

كأنما أعداقه إذا حمل *** غدائر من شعر وحف رجل

وفيه عمري كعمر متصل *** في لون داء العشق لا داء العلل

كالذهب الإبرير لوناً ومحل *** يجمش الخود به الصب الغزل

لو نظمته البكر عقداً لا حتمل *** وفاق عقد الدر حسناً وفضل

لقد شبه الشاعر بساتين النخيل وجمالها وما تنتجه من ثمار كالعسل في مذاقه وطعمه، وصور شكله المتوسط في الطول بالخط المستقيم، ومدح أشجار النخيل قائلاً أنه يشرب من ماءً وحداً ويعطي ثمرًا مختلف الأشكال والألوان والمذاق، لونه الأصفر مثل لون المحب العاشق لا لون المريض العليل كما يعتقد البعض، فاللون الأصفر مثل الذهب الخالص، وتلك الثمار إذا نظمتها الفتاة في عقد لأصبح من أروع وأحسن الدرر.

يعد الرمان من أفضل أنواع الثمار في نظر كشاجم، فوصف رائحته بالزعفران، وشبه فصوصه بفصوص من جواهر الياقوت

الأحمر، فقال: (٣)

ولاح زماننا فزيننا *** بين صحيح وبين فتوت

(١) المصدر السابق: ص ١١٣.

(٢) كشاجم: ديوانه، ص ٣١٧.

(٣) كشاجم: ديوانه، ص ٤٧.

من كل مصفرة مزعفرة *** تفوق في الحسن كل منعوت
 كأنها حقة فإن فتحت *** فصرة من فصوص ياقوت

كما صور الشاعر الرمان بألوانه المختلفة الأحمر والأصفر والجوهر والمرجان، بأن البستاني جهزها ووضعها في طبق فزادت جمالاً على جمالها لشدة ألوانها الفاتحة التي تلفت الأنظار، فقال: (١)

أخضرننا الناطور من بستانه *** في طبق ينطق عن إحسانه
 لونهاً من الرائع في رمانه *** أهدى له الجوهر من ألوانه
 ما أحمر وأصفر ومن مرجانه *** مثل نزول الجيش في ميدانيه
 مدهبه في إلهام من فرسانه *** شيب بريق الشهد في أغصانه

وصور كشاجم أيضاً ثمرة كيزان الفقاع بأنها كقطع الجلود الدائرية الملممة ذات الخيوط السوداء، فقال: (٢)
 ملممات الجسم من صيخود *** مقلمعات قطع الجلود
 مزنرات بخيوط سودود *** كأنها المرء من الوعيد

الفرع الثالث

الزهريات

الأزهار من أكثر المفردات المستخدمة في وصف الطبيعة في العصر العباسي ووصفها الشعراء العباسيين باختلاف أنواعها وألوانها، وساعدهم في ذلك البيئة الممطرة التي تزيد جمالها جمالاً.

وعبر كشاجم في شعره عن جمال الأزهار والورود ورائحتها العطرة ومناظرها الجميلة وهي مزينة الروضيات، واتخذها رمزاً لأغراض التشبيه والوصف في شعر الغزل، فشبّه عيون محبوبته بالنرجس، وشبه وجنتيها بالبنفسج وشقائق النعمان والورد، وشبه الأفاقي بثغرها الناصع (٣)، "ووصف كشاجم الأزهار في صور جمالية مجتمعة ومنفردة من شدة ولعه بأشكالها وألوانها وروائحها ولعاً يشبه ولع ابن المعتز بها". (٤)

أبدع كشاجم في وصف أنواع الزهور المتعددة التي تكسو الأرض كالأقحوان والنرجس والبهار وغيرها.. وكان يستخدم في وصفه أسلوبياً سهلاً ولغة بسيطة وتشبيهات قريبة توحى بجمال وتعدد الألوان والعمور، فقال: (٥)

(١) كشاجم: ديوانه، ص ٣٩٣، ٣٩٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٢.

(٣) كشاجم: ديوانه، ص ٤٠، ص ١٦٢، ص ١٥٣، ص ٤١٧، ص ١٣٠، ص ٨٣.

(٤) عوض على الغباري: شعر الطبيعة في الادب المصري، ص ٣٣.

(٥) كشاجم: ديوانه، ص ١٣١.

والأرض تكسي بزهر الر	***	رياض وشياً معمداً
كأن خرد عيين	***	بها يضاحكن خرد
وأبيض اللون ضاح	***	وحالك اللون أسود
وحمرة من عقيق	***	وخضرة من زيرجد
وأفحوان كما ارفض	***	ض لؤلؤ وتبداً
والنرجس الغض يزنو	***	إلى البهار امنضداً
كما أشجار محبب	***	إلى حبيب بموعداً

وصف الشاعر الأزهار التي تكسو الروضيات بألوانها المختلفة، فصور اللون الأبيض بالإشراق والأسود بالحالك، والأحمر بالعقيق والأخضر بالزيرجد، وشبه زهر الأفحوان باللؤلؤ المنتور، وزهر النرجس بإنسان يتطلع إلى البهار كأنه يشير إلى محبوبته بموعداً.

ووصف كشاجم مصر بالجنة التي تشتمل على جميع أصناف الرياض والأزهار بأنواعها وألوانها وأشكالها المختلفة، مثل زهر السوسن والبنفسج والورد والبهار الأصفر والنرجس، فشبه الأرض كأنها ألبست حلا من الفخار والسنديس، وأيضاً وصف زهر شقائق النعمان بكؤوس العقيق الأحمر، وقد عبر الشاعر أيضاً من خلال أبياته عن مدى ارتباط الروض بشرب الخمر لما فيه من مناظر جمالية وأجواء تهيئ لشرب الخمر، فقال: (١)

أما ترى مصر كيف قد جمعت	***	بها صنوف الرياض في مجلس؟!
السوسن الغض والبنفسج والـ	***	ورد وصف البهار والنرجس
كأنها الجنة التي جمعت	***	ما تشتهيه العيون والأنفيس
كأنما الأرض ألبست حلاً	***	من فاخر العبقرى والسنديس
وقد أحاطت بها شقائقها	***	كأنها من عقائق أكوس
فاشرب على الزهر من معتقة	***	بحلية شبروية المغرس

(١) كشاجم: ديوانه، ص ٢٢٥.

المطلب الثاني

الطبيعة العلوية في الشعر العباسي

لقد التفت شعراء العصر العباسي إلى السماء وزاد اهتمامهم بالبرق والسحاب والغيث والنجوم والكواكب والتنجيات والفصليات وما يحدث من تقلبات في الليل والنهار، وذلك نتيجة للطبيعة الصحراوية التي نشأوا بها، فجعلتهم يتأملون كل ما يحيط بهم، ووصل الأمر عند بعضهم إلى حفظ جميع أسماء النجوم والكواكب.

الفرع الأول

الليل والصبح

التفت شعراء العصر العباسي إلى السماء وعبروا عن شدة إعجابهم بجمال الليل والنهار، وصوروا الليل بأجمل اللوحات المزينة بالنجوم والبدر، أما كشاجم فكان يعبر عن الليل في شعره بأنه تاره يمتعه وتارة أخرى يرهقه ويسهره كالحبيب العاشق، ويشعر كشاجم بطول الليل أما محبوبته تشعر بقصره وتتعم فيه بالسكون والراحة، فقال^(١):

ينام الليل أسهره *** وأشكوه وأشكوه

وليل الصب أطولـه *** على المعشوق أقصره

وكانت النجوم صديقة لكشاجم يسهر معها ويناجيها، ويصفها بعيون الليل التي لا تنام وتشاركه خواطره، فقال^(٢):

ألا رب ليل بت أرعى نجومه *** فلم اغتمض فيه ولا الليل غمضا

ويرى الشاعر الليل والكواكب في صورة أخرى بأنه متقلب بين شرق وغرب، والليل تارة يمر طويلاً وتارة يمر سريعاً، فقال^(٣):

الليل يا صاحبي منطلق *** يقاد زحفاً وما به رمق

غمض دون الغروب كوكبه *** إذ شفه طول ليله الأرق

ورق جداء ظلمته *** فهو على منكب الربي خلق

تأملا الغرب كيف قابله *** شرق بتوريد فجره شرق

ويرى كشاجم أن الليل رغم أنه يرهقه ويسهره إلا أنه يُحسن حالته ويمتعه، ويجده أفضل وقتاً للعمل دون أن يشغله أحد، فقال^(٤):

اتخذ الليل حمل *** ما حمل الليل حمل

(١) كشاجم: ديوانه، ص ١٦٢.
 (٢) المصدر السابق، ص ٤٥٣.
 (٣) المصدر السابق، ص ٢٩٢، ٢٩٣.
 (٤) المصدر السابق، ص ٣٣٣.

والليل فيه متعة *** إذ والليل أخلى للعمل
 آمن فيه زائراً *** يشغني عن الشغل

الفرع الثاني

النجوم والكواكب

كانت للنجوم والكواكب منزلة خاصة عند كشاجم، فقد قال عن اسمه (كشاجم) أن الميم من (منجم) وهو الذي ينظر في النجوم ليحسب مواقيتها وسيرها، وهذا دليل على مدى تعلق كشاجم بالنجوم والكواكب ومعرفته باسمائهم، وظهر هذا واضحاً في شعره حيث أنه استخدم أسماء النجوم مثل الفرقد والسماك والأعزل وعطارد وغيرها، وقد استخدم اسم السماك في الطبيعة وشبهه بأنه يروي النبات فأصبحت كالعقد المنظوم، فقال^(١):

ريان من نوء السماك الأجود *** كالعقد إلا أنه لم يعقد^(٢)

والشمس من مفردات النجوم والكواكب، نجد كشاجم استخدمها في قوله:

شمس يميز بنورها *** غصن من الريحان مائد

ارتبط لفظ الشمس عند كشاجم بالغزل والمدح ووصف الخمر، ففي المدح يشبها بالفتاة ذات الأثوثة وما ترمز إليه من خصوبة في عالم الجذب^(٣)، وفي الغزل يجعل محبوبته كالشمس في إشراقها، فقال^(٤):

وجارية مثل شمس النهار *** أو البدر بين النجوم الدراري

ولقد صور الشاعر وجه محبوبته بالشمس المشرقة، فعندما رحلت كان أثرها من نور ودفء موجود في كل مكان، حتى أن القوم لم يرحلوا عندما جاء وقت الرحيل لأنهم لم يشعروا بغروب الشمس، فقال^(٥):

ووجهت من وراء السجف تخبرني *** أن الخليط غروب الشمس مرتحل

قلت: ارفعى السجف تستمتع بموقفنا *** والشمس ما غيبت من وجهك الكلل

فأبرزت وجهها والشمس آفلة *** ومر ليل ولم يرحل لهم جمل

لم يشعروا بغروب الشمس إذ سمرت *** عن وجهها فأضاء السهل والجبل

(١) كشاجم: ديوانه، ص ٤٤٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٦.

(٣) محمد عجيبة: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٤، ص ١٩٤.

(٤) كشاجم: ديوانه، ص ١٥٣.

(٥) المصدر السابق، ص ٣٢٩.

وفي المديح وصف كشاجم صديقه الصنوبري بالشمس المشرقة أو البدر المضيء، فقال^(١):

نرى في فلـك الأذا *** ب كالشمس أو البدر

وقد شبه آل البيت بالشمس الضحاء، فقال^(٢):

جلاه فإن انكروا فضله *** فقد عرفت ذاك شمس الضحاء

وفي الوصف استخدم كشاجم الشمس في وصف الخمر، فهي تريح الفكر وتبعد الهموم، فقال^(٣):

اشرب من الشمس على ضوء القمر *** مدامة تنفي الهموم والفكر

ووصف محبوبته بالشمس الساطعة وسط الغيوم، فقال^(٤):

فقابلتني بمثل الشمس طالعة *** والغيم مطرد والبدر مفتقد

وبراها شمساً تحيط بها النجوم حين تصب من إبريقها، فقال^(٥):

قم غير مذموم القيام فإننا *** سنقيم سوق اللهو حين تقوم

هذا الصباح فأضحك الإبريق عن *** شمس تحف بها لدى نجوم

واستخدم كشاجم الشمس بغرض الرثاء والانتقال من غرض لغرض، فجعل كسوف الشمس رمزاً للموت وغياب الحياة، فقال في

رثاء عبد الملك^(٦):

هاتيك شمس المجد مكسوفة *** وإنما تكسف شمس الفلك

وقال في رثاء أبيه^(٧):

شمسي هوت من فلك الـ *** مجد وللمجد فلك

(١) المصدر السابق، ص ٢٠٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٤.

(٣) المصدر السابق، ص ١٨٤.

(٤) كشاجم: ديوانه، ص ١٤٤.

(٥) المصدر السابق، ص ٣٥٠.

(٦) المصدر السابق، ص ٣٠٣.

(٧) المصدر السابق، ص ٣٠١.

الفرع الثالث

التلجيات والبرق والسحاب والغيث

أ . التلجيات

إن التلجيات من الفنون المستحدثة في الشعر العربي، وقد استخدمت للمرة الأولى عند شاعري بني حمدان (كشاجم والصنوبري)^(١) وذلك لما تحويه بيئتهم الشامية من اختلافات مناخية، فبيئة الشام غزيرة المطر شتاءً، وتسقط الثلوج عادة من شدة البرودة.

الصنوبري هو أول الشعراء الذين التفتوا إلى جمال الثلج، ولكن لم يرد له أشعار كثيرة في هذا الأمر، أما كشاجم فقد فُتِن أيضاً بجمال الثلج وتميز في وصفه بين شعراء بني حمدان وانفرد بها عن ابن وكيع التنيسي.

وكان كشاجم يصف الثلج في لونه الأبيض الجميل عند وقوعه على الأرض بقطعة الفضة التي سبكها الصائغ، وأيضاً يشبهه حصى الكافور المندثر والأرض فرحة بهذا المنظر وتحولت للون الأبيض كأنها هرمت، وشبه الأشجار بعد نزول الثلج عليها بأنها مُزينة بملاءة بيضاء، وشبه تحول لون أغصانها إلى اللون الأبيض بدلاً من الأخضر كالدرد على قضيب زبرجد، وشبه أغصانها السوداء كعود الهند الطري، ووصف رائحة الجو بالعنبر والمسك، فقال^(٢):

الثلج يسقط أم لجين يسبك	***	أم ذا حصى الكافور ظل يفرك؟
راحت به الأرض الفضاء كأنها	***	من كل ناحية بثغرك تضحك
شابت معارفها فبين ضحكها	***	طرياً وعهدى بالمشيب ينسك
أوقى على خضر الغصون فأصبحت	***	كالدرد في قضب الزبرجد يسلك
وتزين الأشجار منه ملاءة	***	عما قليل بالرياح تهتك
كانت كعود الهند طرى فانكفا	***	في لون أبيض وهو أسود أحلك
والجو من أرج الهواء كأنه	***	ثوب يعنبر تارة ويمسك

ب . البرق والسحاب والغيث:

لقد زاد اهتمام شعراء العصر العباسي بالبرق والسحاب والغيث نتيجة للطبيعة الصحراوية التي نشأوا بها، فكشاجم يشبه الغيث بالإنسان الضاحك الذي يُبسط ويقبض كفيه، ويشبه قطراته بحببات اللؤلؤ، كما شبهه بالجيش الذي ينشر جماعته وفرقه في كل مكان، فقال كشاجم^(٣):

غيث أتانا مؤذنا بخفض *** متصل الويل حثيث الررض^(١)

(١) مصطفى الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ٣٦٢.

(٢) كشاجم: ديوانه ص ٣٠٦، ٣٠٧.

(٣) كشاجم: ديوانه، ص ٢٣٦.

يقضى بحكم الله فيما يقضى	***	كالجيش يتلوه بعضه لبعض
يضحك عن يرق خفي النبض	***	كالكف في انبساطها والقبض
دنا فخاناه فويق الأرض	***	متصلاً بطولها والعرض
إلفا إلى إلف يسر يقضى	***	ثم همى كاللؤلؤ المرفض

وكشاجم يرى الغيث رمزاً للكرم والعطاء فهو شهر مُبشر بالخير، ويمليء الروضيات بالرياحين، ويحول اليباس إلى الأخضر، فقال^(٢):

أرتك يد الغيث آثارها	***	وأعلنت الأرض أسرارها
وكانت أكننت لكانونها	***	خبياً فأعطته أذارها
فما تقع العين إلا على	***	رياض تصنف أنوارها
إذا مزنه سكبت ماءها	***	على بقعة اشعلت نارها

الفرع الرابع

الفصليات

شعر الفصليات من الموضوعات المستحدثة في الشعر العباسي، وظهر نتيجة لامتزاج الحضارات والثقافات وظهور مجالس اللهو والغناء، فلقد جذبت فصول السنة وتغيراتها انتباه الشعراء وخاصة فصل الربيع، فهو بمثابة عروس الفصول في نظر الشعراء، لما يضيفه على الكون من نباتات وأزهار مختلفة، يقول صاحب الأعلام الخطيرة عن وصفه للربيع في حلب: " وماؤها صاف وسعدها وافي، وأنوارها مشرقة، وأزهارها مؤنقة، وأنهارها غدقة، وأشجارها مثمرة، جامعة لأشنيات الفضائل ما تعجز عنه الأوقات^(٣). فالربيع مصدراً للسعادة والراحة، وفيه تتلون الأرض وتضيء بأزهاره الجميلة المختلفة الأشكال والألوان والأنواع، ويدعو كشاجم إلى استقبال فصل الربيع والترحيب به، فقال^(٤):

حى الربيع تحية المسـتقبل	***	أهدى السرور لنا بغيث منسبل
متكاتف الأنواء منغدق الحيا	***	هطل الندى هزم الرعود مجلجل

(١) الويل والوايل: المطر الشديد الضخم القطر. لسان العرب: مادة (ويل).

(٢) كشاجم: ديوانه، ص ١٧٧.

(٣) ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم): الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: يحيى زكريا عبادة، طبعة وزارة الثقافة، دمشق، ط ١، ١٩٩١م، ج ٢، ص ٣٦٤.

(٤) كشاجم: ديوانه، ص ٣٤٠.

جاءت بعزل الجذب فيه فبشرت *** بالخصب أنواء السماك الأغزل

ويؤكد كشاجم على ضرورة الترحيب بفصل الربيع، فهو رمز السعادة ومبعث الأمل، ويصف أزهار الربيع بالغيث، ويصف رياحه بنسيم الصبا العليل، وسمائه مليئة بالغيوم، والبدر يضيء في سمائه كالقوس المنير، فقال^(١):

حتى الربيع تحية المستقبل *** أهدي السرور لنا بغيث منسبل

الثالث

المطلب

الطبيعة متكاتف الأنواء منغدق الحيا *** هطل الندى هزم الرعود مجلجل

جاءت بعزل الجذب فيه فبشرت *** بالخصب أنواء السماك الأغزل

متكاتف الأنواء منغدق الحيا *** هطل الندى هزم الرعود مجلجل

جاءت بعزل الجذب فيه فبشرت *** بالخصب أنواء السماك الأغزل

الصناعية في الشعر العباسي

اتخذ الشاعر الجاهلي من البيئة مصدر الإلهام وفتن بجمالها، وأخذ يُعبر عن حبه لها في أصدق التعبيرات، وشغف بالروضيات وما بها من أزهار وثمار وورود ووصف ألوانها المختلفة ورائحتها العطرة، وكان يعيش حياة الرفاهية ويذهب إلى الديار المنتشرة في جميع الأنحاء، وبها يقضي أفضل الأوقات ويلهو ويتمتع ويشرب الخمر.

الفرع الأول

الديارات

موضوع الديارات من المضامين الجديدة المستحدثة عند شعراء بني حمدان وأثرت في الحياة الأدبية، فوصفوا دير الزعفران، ودير زكي، ودير سعيد، ودير مروان، ودير القصير، والديارات جمع لكلمة الديرة أو الدير، وهناك جمع تكسير وهو الأديرة، ولكن لفظ الديارات هو اللفظ الأكثر شيوعاً عند الشعراء، ومن أكثر الأشعار التي ارتبطت بالديارات شعر الخمر والغزل والصيد والطرده وغيرها من الموضوعات، وكانت الديارات منتشرة في مدن بني حمدان في الموصل، وديار بكر، وحلب.

وأوضح الدكتور مصطفى الشكعة إلى أن "الأديرة لعبت دوراً خطيراً في الحياتين الاجتماعية والأدبية، فقد كانت بلاد الشام والجزيرة حافلة بالأديرة الكبيرة الغنية، التي كان يتردد عليها الشعراء، وطلاب المتع، يعبون من خمرةا المعنقة، ويستمتعون بمغانيتها وبساتينها، ويقضون فيها أياماً نظير أجر معلوم"^(٢).

ووصف كشاجم الديارات بأنها ذات مساحات واسعة، وحدائق خلابة، وبساتين، وثمار متنوعة، فقال^(٣):

ومنشد حين يبيديها النوال لنا *** ألمع برق بدا أم ضوء مصباح؟

أخلفت في العمر عمري حين راح إلي *** غير البطالة قلبي غير مرتاح

(١) المصدر السابق، ص ٣٤٠.

(٢) مصطفى الشكعة: سيف الدولة الحمداني أو (مملكة السيف ودولة الأقاليم) مكتبة المنتبني، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٧م، ص ١٧٠، ١٧١.

(٣) كشاجم: ديوانه ص ٨٧.

ما نور أحداقنا إلا حدائقه	***	لام اللوائم فيه أو لحى اللاحي
بسط البنفسج والمنثور بسط في	***	صحون آس وخبريات تفاح
بدائع لا لدير العث هن ولا	***	لدي حلة من ذات الأكيراح

وعبر كشاجم عن مدى إعجابه بحدائق الدير وانتشار زهرة البنفسج وثمار التفاح فيها، ويلقي كشاجم التحية على دير القصير ويرحب به، ويصف الأوقات التي كان يقضيها فيه ويحكي مغامراته في وقت الأسفار، ويصف الطعام، والخمر وشربه، وكيف كان يقضي وقته من الصباح حتى وقت السحر فقال^(١):

سلام على دير القصير وسفحه	***	فجنات حلوان إلى النخلات
منازل كانت لى بهن مآرب	***	وكن مواخيري ومنتزهاتي
إذا جئتها كان الجياد مراكبي	***	ومنصرفي في السفن منحدرات
فأقتنص بالأسفار وحشى عينها	***	وأعدو على الإنس في الظلمات
معى كل بسام أغر مساعد	***	على كل ما يهوى النديم مواتي
وجرد كاغناق الظباء صوارم	***	تبادر في مضمارها القصبات
ولحمان مما أمسكته كلابنا	***	علينا ومما صيد بالشبكات
طعام إذا ما شئت باكرت طبخه	***	على كثرة من علمتي وطهاتي
وصفراء مثل التبر يحمل كأسها	***	شديد فتور الطرف واللحظات
كان قضيب البان عند اهتزازه	***	تعلم من أطرافه الحركات

وكان كشاجم يفضل الليل في دير مران ويشكره لقصر مدته، وأيضا يصف حدائقه وبساتينه وأزهاره الجميلة وأشجاره المثمرة، ويحكي مغامراته فقال^(٢):

(١) كشاجم، ديوانه، ص ٥٤.
(٢) كشاجم، ديوانه، ص ٤٤٢، ٤٤٣.

سقى ليل قصرت مدته	***	بدير مران مر مشكوراً
يوم أتينا زائرين فصا	***	دفنا به روضه وماخورا
ويات بدر الدجى يشغشعها	***	نورية تلبس الدجى لورا
حتى رأيت الظلام بدرجة الـ	***	غرب ويرد الصباح منثورا
واختلط الليل والنهار كما	***	يخط مسكا وكافورا

الفرع الثاني

الروضيات

لفظ الروضيات من أهم الألفاظ المستخدمة في شعر الطبيعة في العصر العباسي، وذلك لأنه مصطلح يشمل وصف البساتين والحدائق والأشجار والزرع، ومختلف أنواع النباتات والفواكه.

اهتم كشاجم وابن وكيع التنيسي بالروضيات اهتماماً كبيراً، فكانوا يقضون فيها أجمل أوقاتهم ويلجأون إليها طلباً للمتعة واللهو وشرب الخمر، أي أنهم كانوا يهربون من أحزانهم وهمومهم ويتخذونها مصدراً لراحتهم النفسية، ويستوحون من جمالها إلهام شعرهم^(١). ويرسم كشاجم صورة جميلة للروابي والبقاع وهي تتزين بجمال الطبيعة فقال: (٢)

قد نظمت حلبيها الروابي	***	ونشبرت وشبيها البقاع
فالزهر في الروض لى بساط	***	والغيم في الجو لى شرع
أنظر إلى منظر تولت	***	صنعتة مزنة صناع
للنبت تحت الندى اضطجاع	***	وللندى فوقه اضطجاع
واستبشرت تكم المغاني	***	واستضحكت تلم الرباع
تروى القلوب العطاش منه	***	وتشبع الأعين الجيع
حديث أطياره صياح	***	ولعب أشجاره صراع

(١) عوض على الغباري، شعر الطبيعة في الأدب المصري (القرن الرابع الهجري)، ص ١١.
(٢) كشاجم. ديوانه، ص ٢٥٧.

اشتملت هذه التعبيرات الجمالية على العديد من الصور البديعة التي تصور مدى جمال وحسن الروضيات بما تحويه من أزهار ونباتات وطيور، وجسدها الشاعر في صورة سمات ومشاعر إنسانية حية، فصور الروبي بأنها ترتب حليها لتزداد جمالا مع ارتفاعها، وأن بساطها الأخضر مليء بالبقاع والأزهار الملونة الجذابة، ويمتلئ جوها بالغيم كالشراع، وشبه نباتها وأزهارها بالإنسان المضطجع تحت الندى، كما شبه الندى بالإنسان المضطجع فوق النبات والأزهار، وشبه الرباع بالإنسان الضاحك وهذه صورة جميلة توجي بالبهجة ومدى جمال الروضيات، كما شبه القلوب المشتاقة إلى جمال الروضيات بالإنسان العطشان، وشبه الأعين بالإنسان الجائع الذي يبحث عن منظر جميل ليشبع جوعه، وعبر الشاعر في النهاية عن مدى إعجابه بمنظر الطير وهو يتحرك في خفة فوق أغصان الأشجار.

ونظراً لطبيعة بلاد الشام الممطرة، استوقف كشاحم منظر الروضيات وهي مليئة بالأمطار وما تحدثه من تغيرات، فقال: (١)

وروض عن صنيع الغيث راض	***	كما رضى الصديق عن الصديق
إذا ما القطر أسعده صبوحاً	***	أتم له الصنيعة في الغبوق
يعير الريح بالنفحات ريحاً	***	كأن ثراه من مسنك سحق
كأن الطل ^(٢) منتثراً عليه	***	بقايا الدمع في خذ المشوق
كأن غصونه سقيت رحيقاً	***	فما ست ميس شراب الرحيق
كأن شقائق النعمان فيه	***	مخضرة كؤوس من عقيق
كأن النرجس البرى فيه	***	مداهن من لجين للخلوق
يذكرني بنفسجة بقايا	***	صنيع اللطم في الخد الرقيق

لقد أعجب الشاعر بمنظر الروضيات وهي مليئة بالأمطار واستخدم التشبيهات للتعبير عن ذلك، فقد شبه الروضيات بالإنسان الراضي عما فعلته الأمطار به، فنتيجة لنزول المطر أصبح الرياض معطراً بعبير الأزهار، ورائحة ترابه كالمسك الجميل، كما شبه المطر المتبقي على أغصان الأشجار ببقايا الدمع على الخدود، وشبه الغصون بالإنسان الذي ارتوى خمراً فتمايل من أثر الخمر، وشبه زهر شقائق النعمان بكؤوس العقيق، كما شبه زهر النرجس بمداهن الفضة الفواحة بأطيب العطور، وفي النهاية ذكر الشاعر أن زهر البنفسج يذكره بما يفعله اللطم من أحمرار وجمال في الخدود الرقيقة.

ولقد وصف كشاحم أيضاً منظر الأرض بعد نزول المطر عليها بأنه أبهى المناظر وأحسنها، فالأرض بما تحويه من نباتات وأزهار كأنها شكلت لوحة رائعة الجمال وزاهية بالألوان، وشبه زهر السوسن والورد بخدود الفتيات العذارى، وشبه الفضة والنرجس بالعيون الناعسة، فقال: (١)

(١) كشاحم، ديوانه، ص ٢٨٦.
(٢) الطل: المطر الصغار القطر الدائم، وهو أرسخ ندى. ابن سيده: الطلب أخف المطر وأضعفه ثم الرذاذ ثم البعش، وقبلي: هو الندى، وقبلي: فوق الندى ودو بن المطر وجمعه طلال. ينظر: لسان العرب: مادة: (طل).

فـي حـلـيـها المـحـمـر والمـبـيـض	***	فـالـأرـض تجـلـى بـالنـبـات الغـض
مـثـل الخـدود نـقـشـت بـالغـض	***	مـن سـوسـن أحـوى وورد غـض
وـنـرجـس ذاكـي النـسـيم بـض	***	وأقـحـوان كـاللـجين المـحـض
تـزـنو ويغـشـاها الكـرى فـتغـضـى	***	مـثـل العـيون رنـقت لـلغـض

المبحث الثاني

الطبيعة المتحركة في الشعر العباسي

الشاعر الجاهلي استطاع أن يُعبر عن الطبيعة أصدق التعبير وساعده في ذلك أنه كان بدوياً، وحين تحرر من قيود الماضي واختلفت الثقافات وانتقل إلى بيئة أخرى غير بدوية، أيضاً استطاع أن يصور الطبيعة مثلما صورها الأوروبيون من بعد في بيئة مشابهة. وفي نظر الشعراء العباسيين أن الطبيعة الحية أو المتحركة تشمل كل ما هو حي ماعدا الإنسان كالحیوان والطيور والحشرات، وهناك آراء اختلفت مع رأي الشعراء العباسيين في هذا الأمر ويرون بأن أصناف الحيوان ليست ملائمة لمفهوم كلمة الطبيعة، وليست مثيرة للحس الذي ينبض بجمالها.

المطلب الأول

الطيور

لقد كان العصر العباسي بما يحويه من بيئة وثقافة وحضارة مجالاً ملائماً لتربية الطيور، فاستمد الشعراء العباسيين منها مصدراً لإضفاء روح الجمال والبهجة على شعرهم، فوصف كشاحم الطيور فوق أغصان الشجر في قوله^(٢):

أولـيق طـير وقـعا عـلى القـضـب *** فـي ظـل سـدر مـثمـر دانـي الـهـذب

فـيـه لأنـواع مـن الطـير صـخب *** إذـا الرـيـاح زعـزعت تـلك الشـعب

واهتم النويري في (نهاية الأرب) والجاحظ في (الحيوان) والدميري في (حياة الحيوان الكبرى) بذكر أجناس الطيور وتقسيمها إلى طيور جارحة وأخرى أليفة، وصنفوا النوع الواحد من الطيور إلى عدة أجناس وألوان. فمن الطيور الأليفة الحمام، وهو لغة السلام ورمز العشق، ومعاني الحمام في المعاجم اللغوية تدور حول الجمال، والمرأة، والصوت، والدعاء، والهديل^(٣). ويؤكد د. علي أبو زيد " أن النصوص المتعلقة بشعر الحمام تدور حول إبراز الدور الذي يلعبه ذلك الطائر في حياة الإنسان، وخاصة في قالب الوجداني والإطار العاطفي والهيكلي الإنساني"^(٤).

وكان شعراء العصر العباسي مغرومون بأنواع الحمام وخاصة نوع يسمى (القمرى)^(٥)، فكانوا يتنافسون في وصفه ورثائه. فنجد كشاحم يرثي قمریه ويحزن كأنه فقد ابن من أبنائه، وجعل موته من باب غدر الزمان، وأخذ يرثي ويصف شكله، فقال:^(٦)

(١) المصدر السابق، ص ٢٣٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٢.

(٣) "مادة حمم التي تعنى وسط الصدر، والحمامة المرأة، والحمامة المرأة، والحمامة حلقة الباب، والحمامة: كرام الإبل " لسان العرب. مادة "حمام".

(٤) على أبو زيد: الحمام في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م، ص ٦١.

(٥) "القمرية ضرب من الحمام، والأثني من القمري قمرية والذكر ساق حر، والجمع قماري غير مصدوف، قمر ابن منظور، لسان العرب، مادة (قمر).

(٦) كشاحم: ديوانه، ص ٢٠١ - ٢٠٢.

غدر الزمان وجار في أحكامه	***	والدهر عين الخائن الغدار
وفجعت بالقمرى فجعة ثاكل	***	ففقدت منه أصنع السمار
لون الغمامة والغمامة لونه	***	ومناسب الأعلام بالمنقار
ومطوق من صبغ خلقه ربه	***	طوقين خلتهما من النوار
ولظالما استغنيت في غلس الدجى	***	بهديله عن مطرب الأوتار
لهفا على القمرى لهفا دائماً	***	يكوى الحشى بجوى كلذع النار
ولقد هجرت الصبر بعد فراقه	***	ولقد مزجت دما بدمع جارى
ما كنت في الأطيوار إلا واحداً	***	هيئات أودى سيد الأطيوار

المطلب الثاني

الأسماك

صيد الأسماك في الأنهار والبحار كان يقتصر على الأثرياء وكبار رجال الدولة في العصر العباسي، وكانوا يتخذونه وسيلة لأخذ قسطاً من الراحة والرفاهية. ولقد عبر كشاجم عن الأسماك في شعره باختلاف أنواعها وألوانها، ووصف السمكة في جمالها بأيدي النساء الحسنات، وشبهها بالذهب في لمعانه، فقال^(١):

يا رب نهر مدفا ملان	***	جم المدود معمى المغاني
السدح والشبوط والبنان	***	كالطلع مجنياً من الجنان ^(٢)
أو كقود أذرع الغواني	***	مكسوة من صنعة الرحمن
كأنما ينظر من عقيان	***	أو يتظررفن بأرجوان

(١) المصدر السابق، ص ٤٣٢.

(٢) الشبوط: سمك دقيق عريض الوسط لين الملمس صغير الرأس وجمعه شباط.

المطلب الثالث

الحيوانات

لقد كان كشاجم ولوعاً بالصيد، وقدوته في ذلك الملوك، فكان يتخذها هواية يمارسها وليست وسيلة لكسب العيش، إذ إن "الفرق بين الملك المتصيد والقانص المكتسب، أن الملك هو الذي يطارد بخيله وكلابه وجوارحه، ويضجر الوحش ويؤذيها ولا يطلب غراتها، والمتعيش من القنص هو الذي يغتال بشباكه، وحبائله، ويخفي شخصه^(١)" ووصف في شعره حياة بعض الحيوانات، ولكنه كان يكره من الحيوانات القرد والفأر لقبهما، والحمار لبلادته، والضفدع لقبح صوته، ووظف ذلك في شعر الهجاء الساخ^(٢) واتخذ كشاجم الحيوانات رموزاً وأمثلة لوصف شعره وبيان مقصده، فمثلاً اتخذ الضب والنون (الحوت) مثلاً للتفريق بين علمانه ومعرفة قدراتهم، فالأول حيوان صحراوي والثاني حيوان مائي ولا يلتقيان، فقال^(٣):

سائس غلمان رفيق بهم *** رفقا توأخي فيه ضب ونون

الفرع الأول

الحيوانات الأليفة

أ . الخيل

هي رمز القوة والعزة والجمال، فوصفها كشاجم في ديوانه قائلاً: "هي خيل جسيمة طويلة العظام (فوق ظهر سلبيه) وهي قصيرة الشعر أصيلة "الجرد الجياد" نحيلة الخصر، كالسهم قبل أن يراش وينصل "ضمر الأحشاء كالفداح"^(٤) وإذا أخرجت ألسنتها من أشداقها، فأنها تشبه السيوف المستله من الأعماد، فيقول كشاجم:^(٥)

تصف البيض والجفون إذا ما *** أخرجت ألسنا من الأشداق

وشبهها عندما إذا جردت من لباسها بأنها تكشف عن جسم جميل، وكأن تموجات متتية من ثوب مزركش بالذهب، فقال:^(٦)

كأن متينة إذا *** ما عنهما الجمل كشط^(٧)

ملاءة موشية *** فيها من التبر نقط

كأن أذنيه إذا *** ريع بشخص فاختلط

أحسن ما يكتب في الـ *** قرطاس من "لا" إذ تخط

ويصف كشاجم فرسه ويقدم الأدلة لمن يشك في قدراته، ويشبهه بالماء في تدفقه، وأنه سريع الإقبال، ويشبه في حركته بحركة البركار، ورائحة جلده عطرة، وقلاذته من العتيق الثمين، فقال:^(٨)

(١) كشاجم: المصايد والمطار، ص ١٥-١٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٤، ص ١٨٤، ص ٢٦٩، ص ٤١٨.

(٣) كشاجم: ديوانه، ص ٤٠٤.

(٤) كشاجم: ديوانه، ص ٥٤، ص ٨٤، ص ١٢١، ص ٢٠٦.

(٥) المصدر السابق: ص ٢٨٠.

(٦) المصدر السابق، ص ٢٢٤٧ - ٢٤٨.

(٧) الجل: ما تلبسه الدابة لتصان به.

(٨) كشاجم: ديوانه، ص ١٥٢.

من شك في فضل الكميت فيبنه	***	فيه وبين يقينه المضمار
من منظر مستحسن محمودة	***	آثاره إذ تبتلى الأخبـار
ماء تدفق طاعة وسلاسة	***	فإذا استدر الحضر منه فنار
وإذا عطفـت به على ناورده	***	لتديره فكأنه بركـار ^(١)
وصف الخوق أديمه فكأنما	***	أهدى الخوق لجـده عطار
قصرت قلادة نـحرد وعذاره	***	والرسع وهي من العتيق قصار
وكأنما هاديه جـدع مشرف	***	وكأنما للضبع فيه وجاز
يرد الضاحـح غير ثاني سنـبك	***	ويرود طرفك خلفه فيحـار

ويصف كشاجم الخيل في سرعتها بأنها أسرع من لمح البصر، وتهز ذيلها في السير، ويصفها بأنها دائمة الحركة وسريعة العدو، ويشبهها بكلاب الصيد، والشاعر كعادته في الصيد، يخرج منذ الفجر مع أصدقائه، فقال^(٢):

وجبـذا يـوم بكرنابـة	***	والفجر قد أسفر اسفـاراً
وكنـما مبهـج ممتـط	***	طرفا يفوت الطرف خطارا
كأنه من عظم تزكيبه	***	صوره الجبار جبارا
يخطوا على صم إذا حتها	***	ألقت على الأحجار أحجارا
كأننا في وقت إرساله	***	نضرم في أعطافه نارا
يحـب خبابا سـلوقية	***	تفوت أوهاما وأبصارا

ووصف الشاعر الفرس بشكل معنوي، في قوله^(٣):

من كل طرف سابع طـمـاح	***	مناسب للبرق والرياح
-----------------------	-----	---------------------

(١) ناورد: لفظ فارسي بمعنى القتال وجولان الخيل في الميدان.

(٢) كشاجم: ديوانه، ص ٤٤٣ - ٤٤٤.

(٣) كشاجم: ديوانه، ص ٨٤.

يطيره الخضـر بلا جناح *** خال من الجـزان والجمـاح

وكانت رياضة سباق الخيل من أكثر الرياضات المنتشرة في هذا العصر، مما أدى إلى كثرة الملاعب التي يجرى عليها السباق وكانت تضم الكبار والأثرياء^(١)، وكان يتم اختيار الفرس من أصول كريمة الأعراق فقال^(٢):

ومعد للصيد منتخبات *** من أصول كريمة الأعراق

وأما في وصف كشاجم لألوان الخيل فنجده يعبر عنها " ذي بهمة" وهو اللون الأسود الحالك فقال^(٣):
ذى بهمة تضحك عن أوضاح *** كأنه ليل على صباح

والخيل الأحمر والأسود "الكميت"^(٤)، والأسود "أدهم" ولكن قوائمه وناصيتها بيضاء فقال^(٥):
أوبـادر السـبيل بـدر *** أدهم كالليل اعتكـر

لـولا الحـجـول والغـرر *** ومظلق الحـد ذكـر

ب . الإبل:

قال كشاجم في مدح الحسن بن علي التتوخي وتشبيهه بالأسد^(٦):

أسد وبيض الهند من أظفاره *** صل وسمر الخط من أنيابه^(٧)

ولقد اهتم كشاجم بالحيوانات عموماً واهتم بصفاتها وطباعها الغرائزية، وكان هذا واضحاً في كلامه عن الإبل حيث ضرب مثال لأحد الأشخاص لكي يسمعه، فقال^(٨):

إن كنت تنكر أن في الـ *** أألحان فائدة ونفعاً

فانظر إلى الإبل التي *** هي ويك أغلظ منك طبعاً

تصغى لأصوات الحدا *** ة فتقطع الفلوات قطعاً

وقال كشاجم أيضاً في مدح الإبل وهي تسمع الأنغام^(٩):

(١) يوسف بكار: عصر أبي فراس الحمداني، ص ١٠٤.

(٢) كشاجم: ديوانه، ص ٢٨٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٤.

(٤) المصدر السابق، ص ١٥٢.

(٥) المصدر السابق، ص ٢١٤.

(٦) كشاجم: ديوانه، ص ١٨.

(٧) الصل: الحية التي لا ينفع العضتها علاج، الخط الرمح.

(٨) كشاجم: ديوانه، ص ٤٥٤.

وتشوقت للصوت من	***	حاد تصيخ إليه سمعا
دهلت عن الماء الذي	***	تلتذ به بزداً ونفعاً
شوقاً إلى النغم التي	***	أطربها لحناً وسمعا

ج . البرذون^(٢):

البرذون هو حيوان أقرب في شكله إلى الخيل، وفي رأي كشاجم هو أبهى وأجمل من الخيل، ويرى في موته فجيرة وألماً بقلبه، ويشبهه بالموج في علوه وارتفاع همته، فقال^(٣):

وأرى العزاء جفاك حين عرا	***	ك الدهر بالمكروه في الأبلق
زين المواكب أمتطيه فينا	***	جيني ويلحقتي ولا يلحق
يمشى وتجرى الخيل في سنن	***	فيجئ سابقها ولا يسبق
كالموجيسمو إن علوت به	***	شرفا وفي لوهيدات كالزئبق
صافى الأديم يشوب أبيضه	***	من صفرة لمع لها رونق
كالمزنة البيضاء خالطها	***	شفق الغروب فلونها مشرق
وكانما أهدى لمقتله	***	ياقوت من أحجاره الأزرق

د . الظبي

كان كشاجم وابن وكيع يتخذان الظبي رمزاً لوصفهم محبوبتهم، وهناك مفردات عديدة للظبي كالريم والرشا والشادن، وعيون الظبي كحور العيون، فيشبه كشاجم ساقية الخمر الرومية كالظبية في عينها، فقال^(٤):

وأحور من ظباء الروم ساق	***	كغصن البان تثنيه الرياح
وتخيل الشادن معشوقته، في قوله ^(٥) :		
كلف الفؤاد بشادن أبصرته	***	في نأتم يبكي بطرف أدعج

(١) المصدر السابق، ص ٤٥٤.

(٢) البرذون: هو حيوان أقرب في هيئته بالخيل، وكان وسيلة للركوب الخاصة بالناس وأغنيائهم، فهو زين المواكب.

(٣) كشاجم: ديوانه، ص ٢٨٩.

(٤) كشاجم: ديوانه، ص ٩٠.

(٥) المصدر السابق، ص ٦٦.

واتخذها رمزاً للمدح في قوله (١):

إليه زاد بغداً وانقباضاً	***	غزال كلما ازددت اقتراباً
		وقال في المدح أيضاً وتشبيهه الشادن بالمعشوقة (٢):
ظبية لم تخرج	***	فتنتني بدلها
		اتخذ كشاجم الرشا رمزاً للنحافة وطول العنق، في قوله (٣):
فجاذب النفس بها محرجه	***	جاذبنيها رشا أعيد
		وصف كشاجم طعم الظبي اللذيذ في الأكل، فقال في وصفها (٤):
وعند طباخنا جذى قرصناه	***	لنا شرائح من ظبي قنصناه

الفرع الثاني

الحيوانات المفترسة

أ . الأسد

اتخذ الشعراء الأسد رمزاً للتعبير عن الشجاعة والقوة، واستخدموه في تشبيه ومدح الفرسان، ومفاخر قبائلهم وانتصاراتهم، وأطلق على مرثي قتلهم وموتاهم نعوت الأسد (٥)، واستخدم الشاعر العديد من الاسماء التي تدل عليه، كالهزير والضيغم، والليث (٦)، فقال (٧):

والغيث إن عم القحط	***	كالأسد بأساً في الوعي
		وغير الشاعر من الطبيعة المألوفة عن الأسد، وشبهه كأنه يعانق محبوبته، فقال (٨):
كناس في ميس مجسد (٩)	***	وعانق الليث ظبي الـ

ب . النمر

مدح كشاجم النمر في شعره، ووصف جمال جلده، وقوته وسرعته، فقال:

وكالـح كالمغضب المهـيـج	***	جهـم المحيـا ظاهـر النـشـيـج
يكـشـر عن مثـل مـدى العـلـوج	***	أو كـشـبـا أسـنـة الوشـيـج
مـدبـج الجـلـد بـلا تـدبـيـح	***	كأنـه مـن نمـط منـسـوج
تـريـك فـيـه لـمـع التـدريـج	***	كواكبـا لـم تـك فـي بـرـوج

(١) المصدر السابق، ص ٢٣٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٣.

(٤) كشاجم: ديوانه، ص ٤٧٧.

(٥) إسماعيل أحمد شحاده العالم: وصف الطبيعة في الشعر الأموي، مؤسسة الرسالة، دار عمار، ديت، ص ١٩٥.

(٦) كشاجم: ديوانه، ص ١٨، ص ٤، ص ١٩، ص ١٢٠.

(٧) المصدر السابق، ص ٢٤٦.

(٨) المصدر السابق، ص ١٣٣.

(٩) الكناس: بيت الغزال في الشجر الكثيف الملتف.

الخاتمة

في النهاية قد أدركنا ملامح وصف الطبيعة في العصر العباسي، وكيف كان الشاعر في وصف الطبيعة يعبر عن نفسه أصدق التعبير، وهذا نتاج طبيعي لتلك البيئة الصحراوية التي ملكت على الشاعر نفسه، ففتن بها، وأحسن التعبير عن مشاعره حيالها، وظلت الطبيعة منزل وحي الشاعر.

وشعر الطبيعة هو الشعر الذي يمثل الطبيعة أو بعض ما اشتملت عليه، وكانت البيئة الشامية والمصرية آنذاك أرضا خصبة وينبوعا وافرا فرز لنا غررا من الشعر الواصف للطبيعة والتي فتن بها الشعراء، وأخذ الشاعر يتأمل فيها، ويبثها آلامه، وينسى عندها أحزانه، ويحبها، ويفتن بها، كما امتثلتها نفسه.

وصورة الطبيعة هي رؤية الشاعر لطبيعته التي يعيش فيها، على اختلاف مكوناتها، فنجده يستمد منها إلهامه ويتخذ صورها (الصامته والمتحركة) رموزا للاستناد عليها في شعره، ويبدع في وصف الطبيعة بأصدق التعبيرات والكلمات، فيصف الأشجار والأزهار والثمار والسماء والأنهار ويتأمل شكلهم، وكذلك يصف الحيوانات والأسماك باختلاف أنواعهم وألوانهم ويتعجب من صفاتهم وطباعهم، ولا يكتف بهذا الأمر ويذكر صفات الأشياء فقط بل أنه اتخذها صوراً موحية وتشبيهية في مدحه ورتائه وغزله.

فالطبيعة مصدر إلهام للشعراء، يأوون إليها متأملين ظواهر الحياة والكون، ويفزعون إليها مستلهمين وحي الشعر، والطبيعة أوسع منابع الكون غنى، فهي ملهمة الفنان، ومصدر الوحي، ومنبع الإلهام والطبيعة الجميلة بملامحها الرائقة، ومناظرها الرائعة، تهوى إليها أفئدة الناس مهما تفاوتت بيئاتهم، وتباينت ثقافتهم والإنسان بفطرته كلف بالطبيعة، مقدس جمالها، يفرح إليها في أشجانه ليجد في أحضانها سلوته وعزاه، ويهرع إليها في مسراته.

ودراسة الطبيعة تعطي ملامح عامة لأهم السمات المشتركة الجامعة لكل الشعراء، والأخرى الفردية المتعلقة بكل شاعر مما تشكل نموذجا لمعجم شعري مشترك وخاص. وشعر الطبيعة هدية الحضارة العباسية للأدب العربي. وهو واحد من الموضوعات المهمة في هذا الأدب.

قائمة المراجع

- ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: يحيى زكريا عبادة، طبعة وزارة الثقافة، دمشق، ط ١، ١٩٩١م، ج ٢.
- أبو الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ١.
- إسماعيل أحمد شحاده العالم: وصف الطبيعة في الشعر الأموي، مؤسسة الرسالة، دار عمار، د.ت.
- إيليا الحاوي: فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، دار الكتاب المصري، مصر، ط ٣، ١٩٨٠م.
- علي أبو زيد: الحمام في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط ١، ١٩٩٦م.
- عوض علي الغباري، شعر الطبيعة في الأدب المصري (القرن الرابع الهجري).
- كشاجم: ديوانه.
- محمد عجيبة: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٤.
- مصطفى الشكعة: فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.
- مصطفى الشكعة: سيف الدولة الحمداني أو (مملكة السيف ودولة الأقاليم) مكتبة المتنبّي، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٧م.
- يوسف بكار: عصر أبي فراس الحمداني.